

طفولة الانسانية^(١)

للكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

حضرات السادة والسيدات

أتحدث إلى حضراتكم الليلة عن طفولة الانسانية ، ولا أعنى بطفولة الانسانية تلك السن البكرة التي مررنا بها جميعا في مطلع حياتنا ، ولا بأطفال الانسانية تلك المخلوقات الصغيرة التي نراها كل يوم في بيوتنا أو حول بيوتنا .

وإنما أعنى تلك الطفولة التي تلازم الانسان إلى ما بعد الكولة والشيخوخة ، بل تلازمه حتى يفارق الحياة ، وهي طفولة الروح أو طفولة الأخلاق .

ولكننا لا نستغنى عن الكلام في طفولة السب حين نتكلم في طفولة الروح ، لأن
الطفولتين تشابهان في خصلة واحدة ، وهي أنهما تساقان إلى الخير بجزاء وإغراء ، وتدفعان
عن الشر بجزاء وإغراء .

فالطفل سناً لا يتناول الدواء الذي يشفيه إلا إذا وعدته باللعبة وقدمت له الحلوى ،
ولا يمتنع عن الخطأ الذي يضره ويسقمه إلا إذا لوحت له بالعصا أو الحرمان .

وكذلك الطفل روحاً وخلقاً تقوده إلى الفضيلة بوعده وتذوده عن الرذيلة بوعيد ،
ولو كان رجلاً في الروح والخلق لما احتاج إلى الوعد والوعيد .

طفل السن يلهب الرمد-عينيه وتريه القطرة التي تشفيه وتخفف الألم عنه ، فيأبأها
ويصر على إياها ، أو تبذل له المكافأة وتمنيه بالفرجة والمكافأة الحسنة .

ولكنه يصبح رجلاً فيسمى إلى الطيب بقدميه إذا رمدت عيناه ، ويبذل ثمن القطرة
من ماله عن رضى وارتياح ، ولا يحتاج إلى أمر ولا وعد بجزاء .

وطفل السن تضنيه الحمى وتنهيه عن مفارقة الحجرة فلا يرضى ولا يعيخ إلى النسيجة
وهو قادر على مخالفتها ، ولا تزال به حتى تزين له الاعتكاف في المنزل بالألعاب التي تبشها من
حواله والعلاجات التي تعمل بها خياله وتشغل بها فراغ وقته عن التفكير في اللعب والخروج .

ولكنه يصبح رجلاً فيعتكف مختاراً ويفض على من يفتح النافذة عليه في حجراته
فضلاً عن الخروج من الدار .

(١) نص الحديث الذي أذيع من محطة الاذاعة الاسلامية

فعمل المفيد النافع بجزء هو الطفولة ، والامتناع عن الضرر الويل بجزء هو الطفولة ، وقد ترى الرجل في الثسين أو السنين أو السبعين وهو طفل بهذا المعنى في الحالين .

أليس طفلاً بهذا المعنى ذلك الرجل الذى لا يفعل الحسن الجميل إلا وهو ينتظر الأجر عليه ؟ ولا يتهى عن العيب الذم ألا وهو يخشى ما وراءه من عقاب ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى يطلب المآثر لأرباحها وغنائمها ولا يطلبها لذاتها ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى ينتهى عن التقص لأنه مهدد بالعاقبة السيئة ولا يتهى عنه لأن الكمال خير من التقص ، ولأنه بفيض إليه أن يرضى بأسوأ الحالين وأنفس الصفتين ؟

إن الرجل الذى يقال له كن قويا تصرع الأسود وتغلب الجبابرة وتكافح الأمراض ، لا يسألنا : وما جرائى على ذلك ... ؟ فلماذا يسألنا الجزاء إذا قلنا له : كن قويا تصرع الثموات والمطامع وتنفض بالفروض والمظالم ، وتندر على المطلب الجسم الذى يعجز عنه الآخرون ؟

إن الذى يترك الطعام الفنى لياكل الطعام المفيد لا ينتظر الجزاء على ما ترك أو على ما اختار ، فلماذا ينتظر الجزاء على اختيار المروءة وترك النذالة ، أو على اختيار الشرف وترك الضعة والحمول ؟

إنه يشتري الحرير بالثمن الغالى ويترك الكرايس وإن عرضت عليه بالثمن الرخيص ، فلماذا ينتقل إلى سوق الحماد والفضائل فيأخذ الحرير وهو ينتظر المكافأة على أخذه ؟ ويترك الكرايس وهو ينتظر المكافأة على تركها والأنفة منها ؟

إنه لا يفعل ذلك إلا لسبب واحد : وهو أنه طفل الروح والأخلاق ، لا يميز بين الحسن والقيبح ، ولا يعرف النافع والضار ، ولا يدرى الذى هو أدنى والذى هو خير ، ولو درى ذلك لترك الأدنى لأنه أدنى وكفى ، وفعل الخير لأنه خير وكفى ، وكذلك يفعل الرجال كل يوم ، حين يميزون بين الغالى والرخيص ، وبين الحسن والقيبح ، وبين الرفيع والوضيع .

إنهم يطلبون الرفيع ويبذلون الثمن العزيز فيه ، ولا يطلبون الرفيع وينظرون من يكافئهم على أخذه كما يصنع الأطفال : أطفال الروح والأخلاق .

وهنا يخطر على البال ذكر الشاء .

فيخيل إلى الأكثرين أن المرء مطالب باختيار المسائر لأنها تجلب له الشاء ، ومطالب بانتقاء المعائب لأنها تعرضه للتدم وسوء المقال .

وفي هذا الخاطر شيء كثير من الصدق والتعبير عن الواقع ، ولكننا إذا اكتفينا به لم يرتفع بنا كثيرا عن طفولة الروح والأخلاق .

لأن الشاء يأتي من ألسنة الناس ، وألسنة الناس لا تقول الحق في كل حين ، بل الناس أنفسهم لا يعرفون الحق في كل حين ، ولا يعرفون على الدوام ما هو جدير بالحمد وما هو خليق بالمذمة والانتكار .

وقد ينعكس الأمر عندهم فيذمون الحميد ، ويمجدون الذميمة .

وآية الناصح الأمين أنه يعلم الناس ما يعلمون ، وأنه يهديهم إلى الخصال التي يفتلون عنها ، ويخبرهم من العيوب والأخطاء التي يقعون فيها ، ولولا ذلك لما كان للناصحين الأمانة من عمل ، ولا كان للتواضع المتقدمين على أزمانهم من ضرورة ولا منفعة .

فلماذا اقتصر الرجل على ما يحمده الناس وما يذمونه لم يتقدم الناس ، ولم يكن لذلك الرجل من فضل عليهم ، ولا من أثر مشكور في إصلاح شؤونهم وتبديل أحوالهم .

وإنما عليه أن يدعو إلى الأفضل الأكل وإن ذموه ، وأن ينههم عن الأسوأ الأخس وإن أحبوه ، وليس في وسعه أن يفعل غير ذلك إن كان حقا على إيمان وثيق بما يراه ، وشعور عميق بما يدعو إليه .

إن الرجل الذي يستطيط النظر إلى الحقائق والبساتين وينفر من الجلوس إلى المستنقعات والبؤر الموبوءة لا يفعل ذلك لأن الناس يمدونه أو يذمونه ، ولا لأنهم يرضون عنه أو يسخطون عليه ، فإنه ليحب النظر إلى الحقائق والبساتين وإن ذموه ، ويكره النظر إلى المستنقعات والبؤر وإن شكره .

كذلك يصنع الرجل الذي يسمو به الذوق ويلوبه الروح حتى يدرك الفارق بين المنظر الجميل والمنظر القبيح ، إنه لينظر هنا أيضا إلى الحديقة المزهرة وإن لم يغم شاء من ألسنة الناس ، وإنه ليمرض هنا أيضا عن البؤرة الكريهة وإن ساقته إليها ألسنة الناس ، لأنه يحتمل الأذى في سبيل المتعة بالجمال ويحتمل الأذى في سبيل البعد عن القبح والدمامة ، وجراؤه على ذلك أنه يرى الجمال ولا يرى القبح والدمامة ، وليس جزاؤه ما يتقبل أو ما لا يقال .

تلك هي رجولة الروح والأخلاق . وأما ما دونها فهو طفولة الانسانية التي تحتل الرمد ولا تحتل القطرة ، والتي تتداوى من الرمد بأجرو وعد ، وتنبئ القطرة بأجرو وعد ، ولن تزال كذلك حتى تبلغ مبلغ الرجال .

حضرات السادة والسيدات

بن رحولة الروح والأخلاق هي أرق ما ترتقي اليه الانسانية في معارج الجلال .

وقد قال أبو العلاء :

ولتفعل النفس الجميل لأنه خير وأجمل لا لأجل توبه

وهكذا ينبغي أن يفعل كل إنسان تجاوز مرتبة الطفولة الى مرتبة النضج والكمال .

ينبغي أن يرتفع الانسان لأن الرفعة جميلة في غيظه ، ولأن الخسة مؤلمة لنفسه ، وكذلك يفعل كل إنسان في المحسوسات كل يوم وكل ليلة ، فيا كل الشهوى لأنه يحب مدقه ، ويلبس الجليل لأنه يعجب بخسسته ، وينبذ الطعام الكريه لأنه لا يستطيعه ، ويعرض عن المنبس الزرى لأنه يأنف منه ، وليس اسبب غير هذا وذاك .

ولنما ترتقي الأمم والأفراد إلى هذه الدرجة الرفيعة حين ترتقي في التمييز بين الأخلاق والأذواق كما تميز بين المحسوسات من المأكول والملبوس .

عندئذ يسهل الإصلاح في الأمة ، ويسهل على المصالح أن يصلح منها إلى مواضع الأفاع .

فالأمم في هذه الحصلة قسمان : أمم الأطفال وأمم الرجال :

أمم الأطفال هي الأمم التي تعودت أن تطلب الجزاء وراء كل نصيحة ، فاذا قام فيها المصالح الأمين شكت فيه ولم تفهم ما يريد إلا إذا وقع في روعوا أنه ينتظر الجزاء في الدنيا والآخرة ، إما بثناء وإما بجنات النعيم ، وهي تفهمه إذن على قدر ما تتصور من جزائه وجزائها ، لا على قدر الكمال الذي يدعو إليه ولا على قدر التمييز بين الصواب والخطأ وبين الرجولة والطفولة .

أما الأمم التي ارتفعت في مراتب الرجولة فهي لا تستريب في المصالح الأمين لأنها تجهل فائدته وجزائه ، ولا يهمها إلا أن تميز كلامه لتعرف موقع الصواب فيه ، فاذا كان صوابا اتبعته وإن كان عظيم الكلفة عليها . وإذا كان خطأ أنكرته وإن كان محببا إليها وميسورا لديها . كما يفعل طالب الصحة حين يميز بين الطبيب الصادق والطبيب الكاذب ، فيصغي إلى الطبيب الصادق وإن أمره بترك اللذيذ من الطعام وشرب الكريه من الدواء ، ويعرض عن الطبيب الكاذب وإن وصف له ما يرضيه وقوه عليه في حقيقة ما يشكوه .

والعبرة في كل حل بالتمييز .

فلم نخطئ في وصف الرجولة بأنها من التميز ، لأن الخطوة الأولى في سبيل الاختيار الصحيح هي تمييز الفاضل من المفضول والراجح من المرجوح ، ثم تأتي الخطوة التالية وهي الأخذ بالراجح وإن صعب الأخذ به ، وترك المرجوح وإن تيسر الحصول عليه .

وكذلك رجولة الانسانية هي في الواقع درجة التميز بين الكمال والنقص مع غرض النظر عن المكافأة والعقاب ، فمن ميز الكمال والنقص طاب الكمال وإن خسر في سبيله ، وترك النقص وإن ربح من ورائه ، ولم يجد غرامة في هذا وذاك ، ولم يساوره الندم بعد هذا وذاك .



حضرات السادة والسيدات

ما دام الإنسان يريد الخير فهو ينشده ويبذل فيه ثمنه وإن غلا ، وهو إذن رجل الروح والأخلاق .

وما دام الإنسان يراد على الخير فهو لا ينشده إلا إذا عرف الجزاء عليه ، وهو إذن طفل الروح والأخلاق وإن جاوز السبعين والثمانين .

وخير ما نرجوه لهذه الأمة أن تحمل تكاليف الرجولة بغير نظر إلى جزاء ، فذلك في النهاية هو أوفى الجزاء .

من يكون مبدؤه في الحياة الشرف والخير ، يستطيع أن يتحمل في سبيلهما المكاره .
(بينهوفن)